البطولة في الشعر الحديث

بقلم عبد الرزاق البصير

نعتقد ان الايمان بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهداف اكبر الاثر في خلق البطولات في بعض الافراد . وليس من شك ان هناك عوامل اخرى في خلق البطولات ليس هنا محل ذكرها . فالبطل لا يكون جريء الجنان مستعدا للتضحية الا اذا كان مؤمنا بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهداف .

ولعلنا لسنا بحاجة الى القول بان هذا الايمان لا يتحقق للفرد او للجماعة الا اذا ادركت قيمة الحياة، وهذا لا يكون الا اذا حصل الشعب على نوع من الثقافة . من اجل هذا راينا مطلع القرن التاسع عشر يكاد يكون خاليا من البطولات وهو بالتالي خال من شعر البطولة لان الشعر صورة لعصر الشاعر . والسبب في ذلك كله يرجع الى ان الاتراك الذين سيطروا على البلاد العربية باسم الدين قد اشاعوا بين الناس الجهل واجتهدوا في فرض اللغة التركية ، الامر الذي كاد ان يشغل العرب عن تاريخهم وآدابهم ولغتهم فانصرف الشعراء الى التافه من الاغراض كالتهنئة بالمولد او التهنئة بالزواج او بسلامة وصول احد الحكام ، الى غير ذلك من الاغراض التافهة ، مما ادى بالشعراء الى التلاعب بالالفاظ ، فشاع بين الناس ذلك الشعر العظيم اللفظي الذي لا يصور شيئا غير الحياة الفارغة التي لا غناء فيها فانتشرت الخرافات بين الناس مما ادى الى وقف العقول عن التفكير الجدي . وظل الناس على هذا الحال حتى جاء نابليون بحملته المعروفة الى الشرق وكان قد جاء معه جماعة من المستشرقين اخذوا في بث الثقافة بين الناس فاحدث هذا تاثير قد لا يكون قويا ولكنه كان منبها بعض الشيء، ثم زاد الاتصال بالغرب عن طريق البعثات والرحلات فاطلع العرب على علوم لم يعرفوها من قبل وادركوا فيما ادركوا نظم الحكم واساليب السياسة وعرفوا ان للفرد حرية يستخدمها في ابداء الراي والحصول على الحقوق التي تكفل له المساواة وتضمن العدالة . كما عرفوا ان الشعوب لها رايها الذي يؤخذ به في شتى الشئون .

لقد عرف العرب بكل هذا في علوم الغرب وانظمته وترجموا منه ما استطاعوا الى لغتهم العربية فاطلع عليه الجيل في كل مكان ووعوا فيما وعوا ان لهم حقوقا يجب المطالبة بها فسلكوا اليها شتى السبيل ولم تسلم طرائقهم من العقبات التي حالت بينهم وبين ما يريدون . وهنا كانت البداية في الكفاح بل البداية في ظهور الابطال على مسرح الحياة العربية .

ونعتقد ان هناك ناحية اخرى لها الاثر البالغ في تطوير الاحساس بالعزة والانتفاض على المظالم ، تلك هي طبع التراث العربي القديم . ويقيننا ان الحرية التي تطلع اليها العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي صورتها بعض الاشعار كانت نتيجة لذلك التطور الذي بلغه العرب بسبب العاملين الذين اشرنا اليهما سابقا . ومنذ ذلك الحين بدات معان جديدة تظهر للناس كفناء الفرد في الجماعة وحرية الراي فاصبحت الاشعار التي تحتوي على هذه الاغراض هي الاشعار التي تهز القلوب وتاخذ بالاباب وتضيء للشعب العربي افاق الحق بل آفاق الحياة .

واول باب طرقه الشعراء في هذه الناحية هو تذكير العرب بما لهم من ماض مجيد يدل على حضارة عريقة فمن ذلك قول المرحوم ابراهيم اليازجي :

وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في اجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الانام
ونحن اولو المآثر من قديم ... وان جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديما ... ايادي ليس تنكرها الشآم
وفي ارض الحجاز لنا فيوض ... يسيل لها الى اليمن انسجام

وهذا الفخر الذي نراه في تلك الابيات لا يرجع سببه الى عنصرية الشاعر وانما يرجع الى التحدي الكبير الذي كان يقوم به الاتراك ضد العرب فقد كان الاتراك يحتقرون العرب اشد الاحتقار الامر الذي دفع بالشعراء الى الافتخار بالماضي المجيد .

ثم لجأ الشعراء الى اتجاه جديد ارادوا به استنهاض الهمم والثورة على الحكام والمستبدين ومن ذلك قول اليازجي :

دع مجلس القيد الاوانس ... وهوى لواحظها النواعس
اين النعيم لمن يبيت على ... بساط الذل جالس
ولمن ازمته بكف عدا ... ه يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه ... ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى اوطانه ... خربا كاطلال دوارس
فالترك قوم لا يفوز ... لديهم الا المشاكس
او لستم العرب الكرا ... م ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم ... نارا تروع كل قابس

ولقد كانت الاسباب الممهدة لظهور المعاني السابقة في الشعر العربي ممهدة ايضا لظهور ابطال الراي والمصلحين في كثير من البلاد العربية كقاسم امين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الافغاني. فقد حفزت مواقفهم البطولية نفوس الشعراء فصوروها في رائع من القول . من ذلك قول شوقي في رثاء قاسم امين محرر المراة ..

شغلتك في دنياك اربعة ... والمرء من دنياه في شغل
حق تناصره ومفخرة ... تمشي اليها غير منتحل
وتختلف الدروب وسالكوها ... ما للحكيم بهن من قبل
وفضيلة اعيت سواك فلم ... تمدد اليه يدا ولم تصل

وقد افصح الشاعر محمد مهدي الجواهري في قصيدته الرائية بذكرى السيد جمال الدين الافغاني : ـ

وتختلف الدروب وسالكوها ... وغايتها دنوا وابتعادا
ويختلف البناة ورب بان ... بنى من فكر صرحا وشادا

وهكذا كانت بطولة الراي شعلة اضاءت لرجال السياسة سبيل النضال فوقفوا يجاهرون بارائهم بوجه المستعمرين ، ويدفعون الشعوب الى المطالبة بحقوقهم .. وكان الشعر مرآة انعكست عليها هذه البطولات السياسية ووجد فيها القوم تصويرا لامالهم فتغنوا بها في كفاحهم ...

ومن اولئك الزعماء مصطفى كامل ومحمد فريد ويوسف العظمة ..

من ذلك قول شوقي في رثاء مصطفى كامل مبينا اثره في جمع الشعب على كلمة واحدة :

قم تر القوم كتلة مثل منومة الصخر
جددوا الفة الهوى والاخاء الذي شطر
ليس للخلف بينهم او لاسبابه اثر
الفتهم روائح غاديات من الغير

وما كاد هؤلاء الزعماء يرفعون راية الجهاد حتى ثار الشعب العربي في كل مكان فاقلق الدخلاء ولم يجدهم بعد ذلك الوعيد او الفتك بالثائرين ، وكان ذلك كله مؤذنا بنيل الحرية والتخلص من الاستعمار .

وجاء الشعر العربي بعد ذلك مصورا لاحداث جسام قامت في البلاد العربية في بسالة شعبية رائعة ، وهي تلك الثورات التي عرفتها مصر والعراق والشام ، ومن ذلك قول محمد الشريقي من قصيدة نظمها في سجنه بدمشق سنة ١٩١٦:

لله شبان البلاد وشيبها باسم البلاد على الجذوع تعلق
يتقدمون الى الردى بتبسم لا يرهبون الموت وهو محقق
نقموا علينا ان نحب بلادنا والحب في شرع الاله مصدق

وبهذه الثورات الشعبية ، التقت البلاد العربية في مجابهة المستعمرين ووقفت صفا واحدا تدافع عن حقوقها وتطالب باستقلالها .

ولقد سقط في هذه الثورات عدد من الابطال الشهداء كان لمصرعهم رنة اسى في الشعر ، واذكاء للنقمة على المستعمرين المستبدين .

ومن ذلك قول الزهاوي يرثي شهداء الشباب العربي في الشام وقد اظهروا عند تقديمهم للمشانق جراة وبسالة ليس لهما نظير :

على كل عود صاحب وخلل وفي كل بيت رنة وعويل

وفيها يقول :

دنوا فرقوها واحدا بعد واحد وقالوا وجيزا ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذر ومستعجل كيلا يقال كسول

الى ان يقول :

لعمرك ليس الامر الامر ذنبا اصابه قصاص ولكن يعرب ومغال

ولم يكن تصوير الشعر للفدائية شيئا طارئا على حياتنا الادبية فقد عرفت الحياة الوانا منها ايام الفتح الاسلامي ، ولقاء الفرنجة ، ولكن هذه التضحية بالنفس في سبيل المبدا قد خفت في عهود الظلام والاستسلام ثم عادت من جديد الى حياتنا العربية في قوة بالغة وجاء شعرنا الحديث بصوره المبدعة مصورا هذه الفدائية في سبيل الوطن العربي في كثير من الجهات . تلك الفدائية التي اشترك فيها الرجل والمراة على السواء ومن ذلك يقول الزميل الشاعر سليمان العيسى :

ايـن مني عينان ، خلف جدار السجن ، مكحولتان بالكبرياء
وجبين والف نجمة صبح لالات فوق جرحه الوضاء
وفم .. تعجز الحروف وتعيا فيه عن محو بسمة زهراء
بسمة .. لخصت بها شرف التاريخ صديقة من الصحراء
يلعق الوحش جرحها ، فترد الطرف كبرا في صامت من اباء
وهي مذهولة ، اتبلغ يوما مثل هذا نذالة الاحياء
اين مني جميلة ... تزاز الساحات من صمتها بالف حداء

اما الصفة الواضحة التي لم يسبق لها مثيل على ما نعتقد في تاريخ البطولة ولم يحدثنا عنها الشعر في اي عهد من العهود فبطولة الشعوب، وهي بحق تعد آية هذا العصر . فلم يعد امر البطولة مقصورا على القادة والحكام ، وانما اصبحت الشعوب بعد شعورها بنفسها وايمانها بقدرتها هي التي تجالد وتقاتل وتصد ايدي المعتدي محتملة من دمها ومالها وعتادها غبء الجهاد . وهذا هو شعرنا الحديث يتحدث عن البطولة الشعبية في الجزائر وبور سعيد فيحسن الوصف ، ويكشف عن معدن العروبة الاصيل ، يكشف عن الجراة والفداء والتصميم التي اظهرتها مساوىء الاستعمار البغيض ومهدلها ارتفاع المستوى الثقافي بين الشعوب .

كقول الاستاذ محي الدين فارس :

ايه يا سارق الشعوب تقدم ساحة الموت ، واللقاء تقدم
ههنا .. ههنا حساب عسير ولقا مر وشعب تجهم
وعناق مع المدافع حتى الفجر .. حتى اراك شلوا محطم
ما لعينيك راغتا تتحاشاني وفي ثغرك الحديث تلعثم
انت مهما حشدت اسطولك الراعد .. ملء البحار .. لا اتهدم

الى ان يقول :

وغدا بور سعيد تسكنك الافراح .. يبنيك كل قلب .. ويلثم
لن تموتي ... لن تهزمي .. لن تكوني غير فجر على العروبة حوم

ومن الجديد في شعر البطولة ما نراه في شعرنا الحديث من وصف للبطولات الاجنبية فهذا شاعر يمجد جان دارك ، وهذا ما يصف مواقف ستاليفراد وذاك يتحدث عن انتصار الروس على الاتراك وهكذا ... ويقيننا ان هذا اللون من الشعر جاء وليد الاتصال السريع في العصر الحديث ، وارتفاع الشاعر في خياله الى مرتبة من الانسانية تجعله يمجد المواقف الخالدة انى كانت، وقد يدفع اليها في بعض الاحيان اتفاق الاهداف السياسية او العداوة الناجمة من استعمار دولة من الدول للشعوب الضعيفة .

ونعتقد ان شعراءنا العرب يهدفون من وراء هذا كله الى ضرب الامثلة لاستحثاث الهمم ودفع الشباب الى التضحية في سبيل البلاد اخذين من هذه الاشعار مثلا عليا يحتذونها في جهادهم وهذ هو الشاعر عمر ابو ريشة يتحدث عن بطولة جان دارك :

نادت بفيلقها البتول وهز ساعدها المهند
وعدت الى حرم الجهاد السمح بالعزم الموطد
فتلاحم الجيشان فاندلع اللظى والهول ارعد
هذا يفر وذا يكر وذا يكب وذاك يصعد

ومن واجبنا ونحن نتناول شعر البطولات في العصر الحديث ان نشير في شيء من الايجاز الى لون من الوان الشعر ذكر اغلب النقدة ان شعرنا القديم والحديث خلو منه . وذكرت قلة منهم ان ادبنا فقير فيه – ان صح هذا التعبير – ذلك هو شعر الملاحم التي تصف المعارك وتتناول البطولات التاريخية في افاضة واستقصاء وبطريقة موضوعية ليس فيها لشعور الشاعر وذاتيته مجال . قال النقدة ومؤرخو الادب ذلك لانهم لم يجدوا فيما وصل الينا من تراث قصائد طوالا تصف الاحداث التاريخية وتعدد اعمال الابطال كتلك التي رويت عن اليونان والرومان في العهود

القديمة . نعم لقد دافع بعض الادباء عن هذا الاتهام قائلا ان الحروب التي دارت بين العرب قبل الاسلام لابد وان يكون الشعراء قد نظموا في وصفها الملاحم ، ولكنها ضاعت فيما ضاع من تراث ولم تع حوافز الرواة الا القليل من ابياتها . وقد عد هؤلاء بعضا من شعر الفرزدق والاخطل وجرير وشعر ابي فراس وابي الطيب المتنبي من شعر الملاحم وقالوا ان الذين انكروا على الشعر العربي اشتماله على هذا اللون من الموضوعات لم يعرفوا تماما معنى الملاحم الشعرية .

وسواء اصح هذا القول ام لم يصح ـ فاننا لا نجد في شعرنا العربي اتجاها واضحا الى تسجيل الاحداث التاريخية البطولية ـ وقد كان اعتذار المعتذرين عن ذلك في كثير من الاحيان انما هو اعتماد الشعر العربي على القافية والتزامها من اول القصيدة حتى نهايتها مما حد من طولها وجعل الشاعر يتصيد الكلمات التي تصلح لها تصيدا بعد ان تبلغ القصيدة عشرات الابيات . فكيف يستطيع اذن ان ينظم الملحمة في الاف من الابيات وهو مقيد بقافية واحدة . وقالوا كذلك في الاعتذار ان الملاحم نوع من التاريخ الادبي وهو لا يتهيا الا بعد ان يصيب الشاعر قدرا من الثقافة يمكنه من ذلك . ولم يكن ذلك في استطاعته قبل الاسلام . وبعد فما راي شعرائنا في الوقت الحاضر ومادة التاريخ البطولي متوافرة واحداث البطولات في عهدنا الحاضر تغرى بالتسجيل ومعين الثقافة فياض. على ان القافية التي قيل فيها انها حدت من الطول لم تعد امرا يعتمد عليه في الاعتذار بعد ان عدد شعراء الاندلس منذ عهد بعيد القوافي في الموشحات ونحوها . وخرج المجددون في زماننا هذا على قيود القوافي فعددوها في القصيدة التي لا تتجاوز عشرين بيتا ؟

انا لا انكر ان عددا من شعراء العصر الحديث قد حاولوا نظم الملحمة وها هوذا الشاعر احمد محرم والشاعر سليمان العيسى ومن قبلهما الشاعر حافظ ابراهيم ينظمون في هذا اللون من الشعر فيجيدون . ولكنا لا نقنع بمثل العمرية ونحوها ولا نجد غناء فيما كتبه الشعراء في هذا الباب .

ان تاريخنا القديم والحديث غني بالبطولات ونود ان يخلدها الشعراء في صور رائعة من البيان تهز القلوب وتعيد ذكريات النضال وتدفع الجيل بعد الجيل الى التغني بها فتزيدهم حماسة ، وتمكن لهم من المجد الذي يستاهلون . وقد يكون من حقي كعربي ان اتوجه الى المؤتمرين الادباء طالبا منهم التوصية بعقد المسابقات في موضوعات خاصة من البطولات العربية ينظمها الشعراء في قصائد طوال تكون موضوعا للدراسة في مدارسنا الثانوية وغيرها بسائر البلاد العربية .

ومن الظواهر الواضحة في ادبنا الحديث تلك الاناشيد الحماسية التي تدعو الى الجهاد وتذكر بالبطولات ، تنشدها الجماعات بل ينشدها الشعب باسره . وقد اتجه الشعراء الى نظمها في عصرنا هذا ليهيئوا الجيل تهيئة قومية تذكره دائما بوطنه ، وتذكى في النفوس روح الحماسة حتى يتكتل الشعب في جهاده . وليس بعيدا عن الاذهان تلك الاناشيد التي رددها شعب الجزائر في نضاله والاناشيد التي رددها الشعب العربي من المحيط الى الخليج ، وكان لها اكبر الاثر في اذكاء روح النضال في المجاهدين ببور سعيد .

لهذا اقول وانا في هذا المؤتمر الكريم ان من واجب الادباء ان يوصوا باختيار نشيد قومي عربي يصبح شعارنا جميعا في المناسبات المختلفة على ان يكون مصورا لاهدافنا معبرا عن اماننا ومفصحا عن بطولاتنا ، وان هذا النشيد سيكون بمثابة ايذان بسعينا الحثيث نحو الوحدة الشاملة وهي آتية لا ريب فيها ان شاء الله .

عبد الرزاق البصير

ظمأ

يا دجلة
لو نهلة
من وردك
تطفيء نيران الغله
في اعماقي
لو نسمه
من هبات اصيلك
تلحم جرحي ،
تلثم وجهي ،
تغسل اشواقي
لو نجمه
من آفاقك
تومض بسمه
في آفاقي
اواه يا دجله
اواه كم انا مشتاق ،
كم انا ظامىء
امس رايتك في احلامي
وكأن قد عدت صبيا اخرق
يرتاد وفتيان الحاره
شطآنك .. لا يعرف غير اللعب
واللف مع الصحب
لمن درب ، متربّب الوجه ، الى درب
امس رايتك والالام
كانت تقتات على جسمي
تستل عظامي
وانا ...
لهفان .. لهفان .. ظامىء
يا دجلة للنهله
من وردك تبتل جراحي ،
تمسح الامي ....
اواه كم انا مشتاق يا دجله
اواه كم انا ظامى !
كم انا ظامى !!

مصح ادوار السابع بانكلترا

حسن البياتي